نحو مقاربة اجتماعية- نفسية لبعض إخفاقات الجيش المغربي خلال العصر المريني

حميد تيتاو*

كتب ابن خلدون[1] في مقدمته «**أن الظفر في الحروب إنما يقع بأمور نفسانية وهمية، وإن كان العدد والسلاح وصدق القتال كفيل به لكنه قاصر مع تلك الأمور الوهمية**». ويبدو أن كثيرا من الباحثين قد اعتادوا تفسير بعض الإخفاقات التي اعتورت سبيل الجيش المغربي في فترات تاريخية، ومنها العصر المريني على سبيل المثال، على أساس ضعف قواه العسكرية وبناه العامة، واعتماده على وسائل تقليدية إن على مستوى التركيبة البشرية، أو على مستوى السلاح والتجهيزات العسكرية، وأسلوب القتال والتكتيك المعتمد.

وبالرغم من أهمية هذه التفسيرات ووجاهة رأي أصحابها، فإننا نعتقد أن إعادة النظر في بعض هذه الخلاصات، من خلال استغلال ما تقدمه المناهج العلمية المعاصرة خاصة في علم الاجتماع وعلم النفس، كفيل بإعادة تشكيل بعض ملامح التاريخ العسكري المغربي، وتسويد بعض بياضاته، وتصحيح هناته.

في هذا الاتجاه، تأتي هذه المحاولة لتسلط الضوء على قضية لطالما غيبت في معظم الدراسات التي اهتمت بهذا المجال، وتتعلق بتكيف الجنود مع "الحياة العسكرية" من خلال تحليل بعض مواقف القلق والإحباط والتذمر وغيرها مما يتعلق بحالتهم الاجتماعية والنفسية، والتي قد يكون لها دور ما في بعض الهزائم التي مني بها الجيش المغربي خلال العصر المريني، وبعض إخفاقاته الكبرى.

لا يسعى هذا البحث إلى الخوض في كل تفاصيل الحياة الاجتماعية والنفسية للجندي للمغربي، بقدر ما يهدف إلى نفض الغبار عن بعض الجوانب التي من شأنها أن تدفع بالبحث في التاريخ العسكري المغربي نحو تجاوز الرؤى التقليدية والتفسيرات الاختزالية، وخلق أبعاد أخرى تطرق الظاهرة من خلال منظور شمولي يواكب التطور الحاصل في ميدان التاريخ ومناهجه. وسنأخذ الدولة المرينية نموذجا للاختبار والتجربة.

* أستاذ التاريخ والحضارة بالكلية متعددة التخصصات، تازة.

1- **المقدمة**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1993م، ص. 235.

أولا- إخفاقات الجيش المريني في حركاته شرقا: نماذج للتحليل والمقاربة[1]

تجمع المصادر التي خاضت في ملامح الواقع السياسي لبلاد المغرب الكبير خلال القرنين 7و8هـ/13و14م على ربطها بالهزيمة الكبرى التي تلقتها الجيوش الموحدية في معركة العقاب سنة 609هـ/1212م؛ إذ بعدها انفرط عقد الوحدة التي حققها الموحدون في بلاد المغرب الكبير، وتقوضت خلافتهم على مجموع هذه البلاد[2]، حيث استبد الحفصيون ببلاد إفريقية، وبسط بنو عبد الواد سلطتهم على معظم بلاد المغرب الأوسط، وبرز بنو الأحمر في غرناطة، وما تبقى من أرض الأندلس بعد أن استرد المسيحيون معظمها، بينما سيطر بنو مرين على المغرب الأقصى مركز الدولة الموحدية، مما يحيل إلى واقع سياسي معقد تميز بعدم الاستقرار والاضطراب المستمرين.

وقد كان المغرب الأقصى منطلق معظم الحركات العسكرية الرامية إلى إعادة توحيد مجال المغرب الكبير؛ فما إن أتم يعقوب بن عبد الحق سيطرته على البلاد، حتى لاح ببصره نحو بلاد الأندلس اعتبارا لظروف الدولة المرينية التي قامت، إلى حدود هذه الفترة، دون أي تغطية دينية تبرر انتزاعها للملك بالسيف وتشرعن وجودها، مما جعل من الجهاد في العدوة الأندلسية عنصرا مهما لتحقيق ذلك[3]، فضلا عن أهميتها المالية بالنسبة لدول المرحلة، حيث كان الجهاد موردا للغنائم والأنفال[4]. فعبر السلطان المريني بجيوشه نحو الأندلس أربع مرات حقق خلالها انتصارات حازت تقدير مصادر المرحلة[5]، اعتبارا للظروف الحرجة التي كانت تمر بها الجزيرة خلال هذه المرحلة[6]، مثلما أسهمت هذه الانتصارات في تعزيز مكانة المرينيين بالجناح الغربي للبحر المتوسط[7].

غير أن هذا الوضع لم يستمر كثيرا اعتبارا لتعقد ظروف الأندلس التي أصبحت مجالا لتنازع ما تبقى من حكامها، وتحالفهم في أكثر من مرة مع الطرف المسيحي[8]، فضلا عن كون الاستراتيجية المرينية التي اختارت الجبهة الشمالية أفضت إلى تزايد النفوذ العبدوادي في المنطقة[9]. وقد دفعت هذه المتغيرات الأمير المريني الجديد أبا يعقوب يوسف الناصر (685-

1- لسنا هنا بصدد تقييم للتجربة الوحدوية المرينية في بلاد المغرب الكبير من الناحية السياسية، بل بصدد البحث عن أسباب الإخفاقات العسكرية وتفسير الهزائم التي تعرض لها الجيش المريني خلال تجربته هذه. محمد القبلي، **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1987، ص. 8.

2- علي ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، ص. 242. عبد الرحمان ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس، خليل شحادة، مراجعة، سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، 1988م، الجزء 7، ص. 224.

3- القبلي، **الدولة والولاية**، ص. 110-111،113.

4- ابن رضوان، **الشهب اللامعة في السياسة النافعة**، تحقيق علي سامي النشار، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1984، ص. 84.

5- انظر، ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. 313-374. ابن خلدون، **العبر**، الجزء 7، ص. 254-256، 259-265، 268-278.

6- ابن خلدون، **العبر**، الجزء 7، ص. 252.

7- عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1999، الجزء 3، ص. 199.

8- المرجع نفسه، ص. 200.

9- العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، الجزء 3، ص. 200.

706هـ/1286- 1306م) إلى أن يوجه أنظاره نحو الشرق، ويميل إلى بسط سلطته على تلمسان عاصمة بني عبد الواد[1].

الإخفاق الأول: الحصار المريني الشهير لتلمسان

بعد مجابهة العديد من التمردات التي رافقت انتقال الحكم إلى السلطان يوسف بن يعقوب[2]، شرع هذا الأخير في توجيه حملاته نحو تلمسان ابتداء من سنة 689هـ/1290م[3]، انتهت، لعدم جدواها، إلى ضرب حصار طويل على هذه المدينة ما بين 698هـ/1286م و706هـ/1307م[4]. وخلال مدة الحصار، أغارت الجيوش المرينية على كثير من مدن المغرب الأوسط، وبسطت نفوذها عليها، مثل شرشال، ومليانة، ووانشريس، ومستغانم، ووهران، والجزائر، والمدية[5].

أقدم الأمير المريني في بداية حصاره لتلمسان على إنشاء مدينة جديدة بالقرب منها سماها المنصورة[6]، غير أن بناء هذه المدينة، رغم ما أنفق فيه من أموال[7]، لم يمكن سلطان بني مرين من دخول العاصمة الزيانية بعد ذلك؛ إذ حدث أن اغتيل في خبائه بالمنصورة[8]، وأجهض بوفاته مشروع التوسع شرقا، حيث انتهت المشورة التي عقدها السلطان الجديد أبو ثابت عامر (706-708هـ/1307-1308م) مع شيوخ بني مرين ورؤساء الجند بضرورة «**الرحيل والانصراف**» عن هذه المدينة التي أرهقهم حصارها[9]، ففك الحصار وعاد السلطان إلى فاس بعد أن عقد الصلح مع أمير بني عبد الواد، «**وصرف عليه جميع البلاد التي كان أخذها جده لهم**»[10]. وكان هذا أول إخفاق للجيش المريني في هذه الجبهة.

انشغلت الدولة المرينية خلال الفترة الممتدة بين سنة 706هـ/1307م و731هـ/1330م بقضاياها الداخلية[11]. ورغم التراجع الذي سجلته سياسة بني مرين على مستوى مشروع توحيد مجال المغرب الكبير واستعادة التجربة الموحدية خلال هذه الفترة، فقد كانت بحق مرحلة "جني ثمرات الملك" التي تجاوز فيها بنو مرين «**ضرورات العيش وخشونته إلى نوافله ورقة زينته**»[12].

1- مصطفى نشاط، **التجارة بالمغرب الأقصى في العصر المريني الأول، 668-759 هـ** بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية(1) عين الشق، الدار البيضاء، 1988-1989، (مرقونة)، ص. 224-227.

2- ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. 377-378، 381-382.

3- المصدر نفسه، ص. 379-385.

4- ابن خلدون، **العبر**، الجزء 7، ص. 128.

5- المصدر نفسه، ص. 292.

6- ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. 387.

7- ابن قنفذ، **أنس الفقير وعز الحقير**، اعتنى بنشره وتصحيحه، محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965، ص. 70.

8- ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. 388. ابن الخطيب، **شرح رقم الحلل في نظم الدول**، أعده للطبع وعلق عليه وقدم له، عدنان درويش، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، دمشق، 1990، ص. 270-271.

9- ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. 389.

10- المصدر نفسه، ص. 390.

11- ابن خلدون، **العبر**، الجزء 7، ص. 309-311-313-315-316-317-323.

12- ابن خلدون، **المقدمة**، ص. 132.

الإخفاق الثاني: حملة أبي الحسن العسكرية الكبرى على المغرب الأوسط وإفريقية

تبلور في عهد السلطان أبي الحسن المريني (731-752هـ/1331-1351م)، الذي كان **«في مستوى كبار الملوك المغاربة»**[1]، مشروع المرينيين الحقيقي في إعادة ضم مجالات بلاد المغرب الكبير على حساب بني عبد الواد وبني حفص؛ فبعد أن قضى على منافسيه في الحكم[2]، واسترجع الجزيرة الخضراء[3]، توجه شرقا فبسط سلطته على تلمسان سنة 737هـ/1336م[4]، واستتبع قبائل بني عبد الواد وقبائل المغرب الأوسط تحت رايته، فاتسع «**نطاق ملكه، وأصبح ملك زناتة بعد أن كان ملك بني مرين، وسلطان العدوتين بعد أن كان سلطان المغرب**»[5].

لم تدم نشوة النصر كثيرا، إذ اصطدم طموح أبي الحسن بهزيمة طريف سنة 741هـ/1340م[6]، وانتهت بها مرحلة التدخل المغربي الرسمي في الأندلس لحساب العمل الجهادي التطوعي، ونعى المرينيون رغبتهم في بسط سلطتهم على هذه العدوة[7]، وبرزت بالمقابل الرغبة في التحرك شرقا نحو إفريقية الحفصية التي اضطربت أوضاعها بعد وفاة السلطان أبي بكر الحفصي سنة 746هـ/1347م[8]. ورغم أن أبا الحسن تمكن من اقتحام العاصمة الحفصية في ظرف وجيز، إلا أن جيوشه ما لبثت أن تلقت هزيمة جديدة قرب القيروان أمام القبائل العربية عام 749هـ/1348م[9].

وبانهزام السلطان المريني في هذه الوقعة، تقدم ابنه أبو عنان للبيعة، واستلحق فلول الجند التي التحقت به بعد الهزيمة، واستعاد الزيانيون عاصمتهم تلمسان، وعاد الأمراء الحفصيون إلى تونس. ولم تكلل محاولات السلطان أبي الحسن، بعد أن نجا من غرق أسطوله في البحر المتوسط، لاستعادة ملكه من ابنه أبي عنان بالنجاح، حيث انهزم أمامه بالقرب من نهر أم الربيع سنة 751هـ/1350م[10].

الإخفاق الثالث: حملة أبي عنان على إفريقية

حاول أبو عنان إتمام ما بدأه والده، حيث استعاد تلمسان سنة 753هـ/1352م[11]، وبسط سلطته لمدة قصيرة على معظم بلاد المغرب الأوسط. وكانت للفوضى التي أحدثها

1- العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، ص. 202.
2- ابن خلدون، **العبر**، الجزء 7، ص. 336.
3- المصدر نفسه، ص. 338.
4- المصدر نفسه، ص. 341.
5- ابن خلدون، **العبر**، الجزء 7، ص. 342.
6- ابن الخطيب، **شرح رقم الحلل**، ص. 276.
7- العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، ص. 202-203.
8- ابن خلدون، **العبر**، الجزء 7، ص. 354-355.
9- الكفيف الزرهوني، **ملعبة**، تقديم وتعليق وتحقيق، محمد بن شريفة، المطبعة الملكية، الرباط، 1987، ص. 83.
10- ابن خلدون، **العبر**، الجزء 7، ص. 366-380.
11- المصدر نفسه، ص. 381.

أعراب إفريقية والمغرب الأوسط بعد ذلك دور أساس في الدفع بأبي عنان نحو توجيه أنظاره نحو إفريقية، دون إغفال رغبته في استعادة تجربة والده الذي انهزم هناك أمام هذه القبائل. وقد انطلقت حرْكته الشهيرة نحو قسنطينة والزاب سنة 758هـ/1357م[1]، إلا أنه لم يتمكن من اقتحام العاصمة تونس، وتوقفت حملته قبل الوصول إليها بسبب انسحاب كثير من مكونات الجيش ورفضها الاستمرار في هذه الحملة، حيث «**تمشت رجالاته في الانفضاض، وداخلوا الوزير بن ميمون فوافقهم عليه، وأذن المشيخة والنقباء لمن تحت أيديهم من القبائل في اللحاق بالمغرب حتى تفردوا، وانتهى إلى السلطان أنهم تآمروا على قتله، فرأى قلة العساكر، وعلم بانفضاضهم، فكر راجعاً إلى المغرب**»[2]. وما لبث، بعد ذلك، أن قتل خنقا على يد أحد وزرائه سنة 759هـ/1357م[3].

كانت هذه أهم المحاولات الكبرى التي نفذها المرينيون في سبيل ضم مجالات بلاد المغرب الكبير، وقد اختلفت، عما سبقها من تجارب خاصة الموحدية، بقصرها وانتهائها بانهزام الجيش المريني وعودة فلوله إلى العاصمة فاس، إما بعد فشل الحصار والعودة دون مكاسب، أو بعد اصطدام ومعارك، أو حتى قبلها نتيجة انفضاض الجيش ورفض الجند الاستمرار في الحملة. فما الذي وقع؟ وبماذا يمكن تفسير هذه الإخفاقات؟

ثانيا- دور الجند ضمن الأسباب العامة لفشل هذه الحملات

الأكيد أن ثمة أسباب كثيرة لهذه الإخفاقات، بعضها ظرفي مرتبط بخصوصية كل حملة على حدة من حيث الظروف السياسية والاقتصادية المحيطة بها، وبشكل الاستراتيجية المتبعة فيها، بل وبمستجدات العصر المريني مقارنة بسابقه من حيث القوة والعدد والعقيدة أيضا،على أن بعضها الآخر هيكلي مرتبط بطبيعة الحملات العسكرية المرينية ومدى تكيف الجنود مع سير هذه الحملات، وعلاقتهم بوسطهم الاجتماعي وبأسرهم وذويهم، وهو ما يعنينا كثيرا في هذه القراءة.

في هذا الصدد، تمدنا المصادر المؤرِّخة لهذه الحملات بتفسيرات بالغة الأهمية تستوجب منا الوقوف عندها لفهم ما وقع، إذ يبدو أن ثمة خيطا ناظما يفسرها؛ ويتمثل في تذمر الجند في جميع الحالات المذكورة من طول مدة الحملة العسكرية سواء خلال الحصار الكبير لتلمسان أو خلال حملة أبي الحسن على إفريقية، وكذلك خلال حملة ابنه أبي عنان في اتجاه الشرق، وهو التذمر الذي أنتج ردود فعل قوية استلزمت توقف هذه الحملات وإخفاق هذه المشاريع، بل وأفضت، لحدتها، إلى حبك المؤامرات والانقلابات واغتيال السلطان في أقصى الحالات.

1- ابن الحاج النميري، **فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب**، دراسة وإعداد، محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1990 م، ص. 223.

2- ابن خلدون، **العبر**، الجزء 7، ص. 394.

3- المصدر نفسه، ص. 396-397.

وقبل تبين دور تذمر الجند في إخفاق هذه الحملات نتيجة طول مددها، يجدر بنا أن نؤكد أن هذه الظاهرة ليست وليدة الفترة المرينية؛ فقد كان من أهم ما ميز الدولة المغربية خلال "العصر الوسيط" عموما، والدولة المرينية على وجه التخصيص، هو ذلك التنقل الدائم والمستمر للسلطان بمعية جيشه خارج عاصمته سواء في اتجاه مناطق داخل المغرب الأقصى، أو في اتجاه المغربين الأوسط والأدنى، أو الأندلس، وهو التنقل الذي جعل من الدولة المغربية خلال هذه المرحلة جهازاً عسكريا متحركاً على الدوام[1]، وقد كان من الطبيعي أن يولد ذلك التحرك الدائم والمستمر أشكالا من الرفض من قبل الجنود خاصة في الحالات التي تطول فيها مدة الغياب عن الأهل والبلد.

ومن الإشارات الدالة على حضور هذه الظاهرة قبل العصر المريني، ما أورده ابن أبي زرع[2] في حديثه عن حركة عبد المومن بن علي الموحدي إلى إفريقية التي أفضى طول مدتها إلى تذمر قوي لدى الجنود من ذلك الوضع، وكانت أبرز نتائجه محاولة اغتيال عبد المومن بن علي في خبائه بغرض وقف هذه الحملة. وهو ما تجنبه المنصور عندما استجاب لرغبة مشايخ الموحدين في الاستراحة قبل بداية حملة جديدة، إذ «**رغب أكثر الموحدين والعساكر من المرتزقين في السراح إلى بلادهم وأوطانهم (...) وارتحل أكثرهم، وأقام أشياخهم وكبراؤهم ومزاورهم**»[3].

تمدنا المصادر خلال العصر المريني بإشارات كثيرة عن تذمر الجنود من طول مدد الحملات العسكرية؛ وفي هذا السياق، ترجع أول إشارة عن إرهاق الجند إلى مرحلة سابقة عن حملات المرينيين نحو تلمسان وإفريقية، إذ تكشف بعض النصوص أن يعقوب بن عبد الحق كان يحرص على توفير بعض فترات الاستراحة للجند قبل مواصلة حملاته، وهو ما يستفاد من قول أحد الإخباريين[4]، إنه أثناء حصار الحشود المرينية لمراكش (665هـ/ 1266م) أقلع يعقوب عن حصار العاصمة الموحدية، «**وقصد تلمسان لحرب يغمراسن بن زيان (...) فسار حتى وصل مدينة فاس، فأقام بها حتى استراح الناس، ثم خرج إلى تلمسان**»[5]. ومنذ الغزوة الأولى للجيش المريني إلى الأندلس، أبدى الجنود تذمرهم ومللهم من مقامهم بها بعيداً عن أهليهم، «**فلما علم أمير المسلمين ذلك منهم جاز إلى العودة**»[6]، على الرغم من أن مدة مغيبهم في الأندلس لم تتجاوز ستة أشهر[7].

1- القبلي، **الدولة والولاية**، ص. 78-79. ويهدف هذا التنقل الدائم – علاوة على كونه أداة لإخضاع القبائل والمنتزين وإرغامها على أداء ما تكلف به، وعنصراً أساسيا لمغالبة الدول المجاورة على المجال والساكنة- إلى إظهار السلطة في المكان بواسطة الجيش، وإبراز عظمة السلطان في مجال يتميز بالمقاومة المستمرة للدولة. محمد عابد الجابري، **فكر ابن خلدون، العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي**، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1979م، ص. 29-30.

2- **الأنيس المطرب**، ص. 199.

3- ابن صاحب الصلاة، **المن بالامامة**، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1987، ص. 424.

4- ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. 305.

5- إذا علمنا أن الجند المريني كان غائبا عن دياره في إطار محاولات يعقوب بن عبد الحق القضاء على بقايا الموحدين مدة سنة تقريبا، كان طبيعيا أن يخصص هذا الأخير لجنده هذه الفترة من الاستراحة قبل البدء فيحملة جديدة. المصدر نفسه، ص. 304-305.

6- المصدر نفسه، ص. 321.

7- ابن خلدون، **العبر**، الجزء 7، ص. 229.

بالنسبة للحملات المرينية الكبرى نحو الشرق، نموذج هذه الدراسة، لا نعدم من الإشارات ما يحيل إلى أنها مثلت أبرز الحملات العسكرية المتميزة بطول مدد تغيب الجند عن مواطنهم، وشساعة المجالات التي ارتادوها خلال هذه الحملات. ولعل أشهرها تلك التي ترتبت عن الحصار الطويل لمدينة تلمسان العبدوادية، والذي امتد لمدة ثماني سنوات[1]. وإن كنا نرجح أن تكون مدة غياب الجند عن مواطنهم أطول من مدة الحصار، باعتبار أن أبا يعقوب يوسف في حملاته الأولى على هذه المدينة قبل ضرب الحصار، كان قد ترك بعضا من جنده للإغارة عليها[2]، ولعل هذا ما يفسر تميز ابن أبي زرع[3] بالرقم الذي حدده، رغم ما يبدو عليه من مبالغة، لغياب الجند بقصد هذا الحصار في أربع عشرة سنة.

ومما يؤكد تذمر الجند من طول مدة غيابهم عن مواطنهم وأهليهم نتيجة طول مدة الحصار دون التمكن من اقتحام تلمسان، المشاورة التي أجراها السلطان أبو ثابت عامر، بعد توليه الإمارة مباشرة بعد مقتل السلطان أبي يعقوب يوسف، مع أشياخ بني مرين والعرب ورؤساء الناس بشأنها «**هل يقيم على حصارها أم يرجع إلى المغرب؟ فكلهم أشار عليه بالرحيل والانصراف**»[4]. وذلك لـ«**أن الناس قد قنطوا في هذه البلاد ولهم بها عن أولادهم وعيالاتهم أربعة عشر سنة**»[5]. وأضاف ابن أبي زرع[6] أنه «**لما رأى إجماع الناس على الرحيل**» قرر فك الحصار والعودة إلى فاس.

يدفعنا التذمر الذي أصاب الجند من جراء حصار تلمسان، وما أبدوه من إجماع على الرحيل منه، إلى عدم تبرئتهم من دم السلطان يوسف بن يعقوب الذي اغتيل قبل تلك المشورة بأيام على يد أحد عبيده الخصيان في خبائه بالمنصورة، وبالتالي من فشل هذه الحملة العسكرية وعدم تحقيق أهدافها[7]. فعلى الرغم من أهمية التفسيرات التي قدمها بعض الباحثين لهذه الحادثة[8]، إلا أننا نعتقد، مع أحد الباحثين[9]، أن لطول مدة الحصار دون التمكن

1- المصدر نفسه، ص. 113. الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية، محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الطبعة الثانية، 1983م، الجزء 2، ص. 18.

2- ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. 385.

3- المصدر نفسه، ص. 389-390.

4- المصدر نفسه، ص. 389.

5- المصدر نفسه، ص. 389-390.

6- المصدر نفسه، ص. 390.

7- المصدر نفسه، ص. 388. ابن الخطيب، **شرح رقم الحلل**، ص. 270-271. ابن خلدون، **العبر**، الجزء 7، ص. 129-307-308.

8- دونا عمن اعتبرها مجرد حادث عرضي. بنسالم حميش، **الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ**، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 1988، ص. 117. فقد فسرها محمد عيسى الحريري بانتقام الخصي سعادة لتردي مكانة العبيد الخصيان في البلاط المريني. **تاريخ المغرب الاسلامي والأندلس في العصر المريني**، دار القلم، الكويت، الطبعة الأولى، 1985، ص. 92. في حين لم يتردد محمد فتحة في ردها إلى قصة حريم غامضة. **الأحكام والنوازل والمجتمع، أبحاث في تاريخ المغرب الإسلامي من القرن 12م إلى القرن 15م**، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق، الدار البيضاء، 1995، ص. 96. أما محمد ياسر الهلالي الذي خصص لهذه الحادثة دراسة مستقلة، فبعد تمحيصه لمختلف الروايات التي قدمتها المصادر والدراسات لهذا الحادث ونقدها، لم يتردد في الحديث عن دافع جنسي يقف وراء عملية الاغتيال، ولم يستبعد ان يكون لتبعات طول الحصار وعدم التمكن من اقتحام المدينة، وما أفضى إليه من تذمر دور في حبك هذه المؤامرة لاغتيال السلطان يوسف بن يعقوب المريني. «قراءة في نصوص تاريخية ومناقبية لحادثة المنصور»، ضمن، **التاريخ والفقه**، أعمال مهداة إلى المرحوم محمد المنوني، إنجاز الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، ص. 229-259.

9- محمد ياسر الهلالي، «قراءة في نصوص تاريخية...»، ص. 258.

من اقتحام المدينة، والتدابير العسكرية التي اتخذها السلطان المغتال لتشديد الحصار[1]، يد في المؤامرة التي حبكت لوقف هذه الحملة، وكان اغتيال السلطان أهم نتائجها.

ويبدو أن حدة تذمر الجند من طول مدد الحملات العسكرية بلغ أوجه في عهدي السلطانين المرينيين أبي الحسن وابنه أبي عنان، وكان لذلك التذمر، على ما يبدو من خلال النصوص المؤرخة لهذه المرحلة، دور أساس في الإخفاقات التي انتهت بها محاولاتهما الكبرى لتوحيد المغرب الكبير؛ ومن أبرز النماذج التي يمكن تقديمها لرصد طول مدد حملات الجيش في عهد السلطان أبي الحسن، حملته على تلمسان التي بلغت مدتها من يوم خروجه من فاس إلى يوم اقتحامه لها حوالي سنتين[2]، مما يعني أن مدة الغياب كانت أطول باعتبار المدة التي تلت عملية الاقتحام قبل العودة إلى فاس. في حين طالت مدة غياب من توجه بهم إلى الأندلس، وانهزموا في طريف (741هـ/1340م) أكثر من سبع سنوات قبل أن يسجل ابن خلدون[3] عودتهم إلى فاس سنة 747هـ/1346م. وأما حملته الأخيرة إلى إفريقية قبل نكبته، فقد استغرقت حوالي السنتين[4]، وعبر عن طولها الكفيف الزرهوني[5] بقوله :

لـــوْ قـامْ فِـي وَادْ بِجاية الغـرَّا ... مَــنْ ثَمَّـة كَـانْ يِـزِيدْ فَمْلَـكْ شَانْ
إلاَّ طْـوَى البِيـدْ وُطَـوَّلْ السَّفْـرا ... وُرْمَى الناس في خْلاقــم الثعبــان

فهل كان لهذا الغياب المطول للجند عن أهليهم ومواطنهم دور ما في فشل حملة السلطان أبي الحسن على إفريقية، وبالتالي فشل مشروعه لإعادة التجربة الموحدية في ضم مجالات المغرب الإسلامي؟

أجاب ابن خلدون[6] عن هذا السؤال بكثير من التركيز، وبعبارات دقيقة تفيد ما نحن بصدد تأكيده، إذ فسر أسباب تبرم بني مرين عن السلطان أبي الحسن وتخليهم عنه، والدفع به إلى الهزيمة في أكثر من موقف، بقوله: «**كان لبني مرين نفرة من السلطان وحذر من غائلته لجنايتهم بالتخاذل في المواقف، والفرار عنه في الشدائد، ولما كان يبعد بهم في الأسفار، ويتجشم بهم المهالك، فكانوا لذلك مجتمعين على منابذته، ومخلصين مناصحة ابنه**» أبي عنان. وإلى جانب ابن خلدون، الذي ربط بين الإبعاد بالجنود في الأسفار وفشل حملته العسكرية، قدم الكفيف الزرهوني في "ملعبته" توضيحات أكثر عن هذا العامل ودوره في فشل هذه التجربة، وفي هذا الصدد نظم قائلا[7]:

1- ابن مريم، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص. 27.
2- من أواسط سنة 735هـ/ 1334م إلى ما بعد رمضان 737هـ/ 1336م. انظر، ابن خلدون، **العبر**، الجزء 7، ص. 339-341.
3- المصدر نفسه، ص. 312.
4- فقد خرج من تلمسان في اتجاه إفريقية في حدود رجب 747 هـ/ 1346م، بمعنى أنه قبل ذلك كان غائبا عن فاس، وانتهت الحملة بنكبته في جمادى 749 هـ/ 1348م، وإذا اعتبرنا الأحداث والنكبات التي أعقبت هزيمته في تحديد مدة غياب الجند على الحضرة، فستدوم إلى حدود 751 هـ/ 1350م بعد انتهاء الحرب بين هذا السلطان وابنه أبي عنان. المصدر نفسه، ص. 355-380.
5- **ملعبة**، ص. 84
6- **العبر**، الجزء 7، ص. 339.
7- **ملعبة**، ص. 58-59-81-82-83-84.

عَسْكَـــرْ فَـاسْ الْمَدِينَـةْ الغْـرَّا — إيـنْ صَـارَتْ بِهْ عْزَايَمْ السلطـان
أَحْجَّـاجْ بَالنُّبِـي اللِّـي زَرْتُـمْ — وَقْـطَعْتُمْ لِيهْ كْلَاكَـلْ البِيـدَا
عَـنْ جِيـشْ الغَـرْب جِيتْ نْسَالْكُم — المَتْلُـوفْ فِـي افريقيـا السُّـودَا

(...)

تَـرْجَـعْ الخْبَـارْ لْلطَّامَّـة الكُبْـرَى — وُقَضِيَّـةْ حَـرْبنـا مْعَ العَـرْبَـانْ
قَالُـو مَـا خَضْنَـا سِـوَى أَرْض الصِّيـنْ — لَـوْ قَـالْ قُـومُوا لْهَا لَقُلْنَـا أَيَّـا
أُولَادْنَا تْيَتْمُـوا بْنَـات وُبْنِيـنْ — وُنْسَانَـا تْرَمْلُـوا وُنَحْـنُ أَحْيَا

(...)

هْتَكْنَـا قَالُـوا بَكْثَـرْة الرَّحْـلَات — لَبْـلَادْ الحَـرْ وُالغْـلَا وُالجُّـوعْ
وَيْرِيـدْ عَـادْ يَفْتَـحْ بَـنْ رَمْـدَاتْ — عَـادْ الأَصْغَـر وُكَنْزْهَا الـمَجْمُـوعْ

(...)

لَـوْ قَـامْ فِـي وَادْ بِجاية الغَـرَّا — مَـنْ ثَمَّـة كَـانْ يـزِيدْ فَمْلَـكْ شَـانْ
إِلاَّ طْـوَى البِيـدْ وُطَـوَّلْ السَّفْـرا — وُرْمَى الناس فِي حْلاقـم الثعبـان

والظاهر أن أبا عنان لم يستفد، في حملته العسكرية على إفريقية، من تجربة أبيه مع جنده، ففشل بدوره بعدما خلقه من معاناة لجنوده وأتباعه، إلى درجة إعلان السخط والتذمر والعصيان ورفض مواصلة القتال[1]، لأنهم ألزموا على السفر بعيداً عن أولادهم وذويهم، وفي هذا قال ابن خلدون[2] إن السلطان أبا عنان، وهو في إفريقية، «**أعزم على الرحلة إلى تونس، وضاق ذرع العساكر بشأن النفقات والإبعاد في المذاهب (...) فتمشت رجالاتهم في الانفضاض، وداخلوا الوزير بن ميمون فوافقهم عليه، وأذن للمشيخة والنقباء لمن تحت أيديهم من القبائل في اللحاق بالمغرب حتى تفردوا**».

ولم يقف الأمر عند مجرد رفض الانصياع لأوامر السلطان في مواصلة الحركة، بل وصل إلى مستوى التدبير والمؤامرة لاغتياله، حيث بلغه «**أنهم تآمروا على قتله، فرأى قلة العساكر، وعلم بانفضاضهم، فكر راجعاً إلى المغرب (...) وتقبض يوم دخوله على وزيره فارس بن ميمون،اتهمه في مداخلة بني مرين في شأنه، وقتله رابع أيام التشريق قعصاً بالرماح، وتقبض على مشيخة بني مرين فاستلحمهم وأودع منهم بالسجن**»[3].

1- علي الماحي، **المغرب في عصر السلطان أبي عنان المريني**، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1986، ص. 110.
2- **العبر**، الجزء 7، ص. 353.
3- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

نخرج من هذه القراءة الأولية لدور الجند في فشل المشاريع العسكرية الكبرى للدولة المرينية بمجموعة من الاستنتاجات:

1- أن مجموع المادة المصدرية التي أوردناها عبرت بوضوح عن حقيقة أساسية تمثلت في أن طول مدد الحملات العسكرية أفضت، في كل الحالات المدروسة، إلى إعلان الجند عن تذمرهم، وعن رغبة واضحة لديهم في وقف الحملة والعودة إلى الديار.

2- أنه قلما صادفنا إجماعاً من كل الأطراف على رفض الانصياع لأوامر السلطان، وتوافقا أكثر وضوحاً بين مكونات الجيش مما نراه هنا فيما يخص موضوع الغياب المطول للجنود، وهو ما يبدو جليا أكثر في حالة حصار تلمسان التي أجمع فيها الكل على ضرورة وقفه، وكذا في حالة حملة أبي عنان التي انفض فيها جيشه عنه، ما دفعه إلى وقف الحملة.

3- انتهاء هذا التذمر في أكثر من مرة إلى مستوى فشل حملة عسكرية بحجم الحصار الشهير لتلمسان أو الحملة الكبرى لأبي الحسن إلى إفريقية أو حملة ابنه أبي عنان، بل وانتهاء التذمر إلى تمرد بلغ حد التدبير للاغتيال كما في حالة أبي يعقوب يوسف أو في حالة أبي عنان، أو حتى قبل العصر المريني في ما يخص محاولة اغتيال عبد المومن بن علي.

في كل الأحوال، فإن هذه الاستنتاجات وكذا العبارات التي أشارت إلى تذمر الجند من كثرة الغياب، وطول مدده، حملت في طياتها عناصر لابد من إدخالها في الاعتبار عند دراسة الأسباب العامة لنجاح أو فشل المشاريع العسكرية للجيش المغربي خلال المرحلة المدروسة؛ عناصر يرتبط بعضها بمدى تكيف الجنود مع الحياة العسكرية وأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية والنفسية. وعناصر أخرى يمكن استقاؤها بين ثنايا النصوص التي أوردناها، ومن غيرها من النصوص التي تحيل إلى الصعوبات التي تعترض حياة الجندي بسبب تذمر الطرف الثاني أي الأهل والزوجة، إن وجدت، من مشكل الغياب. وجميعها عناصر أساسية تكشف عن حدة مشكل الغياب بالنسبة للجنود، مما يدفعنا إلى التنقيب عن دوافع هذه الحدة، ويجعلنا نطرح في هذا البحث مسألة اندماج وتكيف الجند مع الحياة العسكرية، وما يحيط بها.

ثالثا- قضايا في تكيف الجنود مع "الحياة العسكرية"

يحيل العنوان الذي اخترناه لهذا الجزء إلى قضية منهجية تتعلق بحدود إمكانية الحديث عن "حياة عسكرية" بالمفهوم المعاصر للمصطلح، نظرا لما يعنيه بالضرورة من وجود نسق عسكري يشكل كيانا اجتماعيا متفردا بخصائص اجتماعية معينة من حيث التشكل والبناء و التنظيم والمهام والسلوك والقيم و التراتبية...، تميزه عن باقي الأنساق الاجتماعية الأخرى، ولما يعنيه أيضا من وجود نسق مقابل له هو "الحياة المدنية"[1]. والحقيقة أنه من الصعب على الباحث في تاريخ المغرب خلال "العصر الوسيط" أن يغامر ويستخدم مثل هذا المصطلح في مجتمع كان معظم أفراده من الذكور، فيما يبدو، يتقنون حمل السلاح وركوب

1- فؤاد الآغا، **علم الاجتماع العسكري**، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2008، ص. 48-60.

الخيل منذ الطفولة، ويتحول فيه الفلاح والحرفي والتاجر وقت السلم،إلى جندي ومحارب زمن الحرب، كما تمتزج فيه مظاهر "الحياة المدنية" بمظاهر "الحياة العسكرية" سواء في اللباس، أو في الغناء، أو في الرقص وغيرها[1].

وبناء عليه، فإن المقصود هنا بـ"الحياة العسكرية" لا يحيل إلى ما يقصده المتخصصون في علم الاجتماع العسكري، بقدر ما نعني به أساسا الظروف العامة المحيطة بحياة الجند والمتطوعة والمرتزقة وكل من كان يجيشهم السلطان في حملاته العسكرية، ونعني به أيضا حياة هؤلاء في المحلة السلطانية التي تحولت في مغرب هذه المرحلة إلى مجتمع متنقل بـ"إدارته" وجنده وأسواقه، والمتميزة أساسا بالتنقل الدائم أولا وطول مدد هذا التنقل ثانيا[2]. أما القصد من وراء كل ذلك، فبحث عن عناصر تفسر تذمر الجند وما تبعه من فشل تلك المشاريع العسكرية الكبرى كما أوردناها.

1- الجانب الاجتماعي في تكيف الجنود مع "الحياة العسكرية"

من الأفضل أن نستهل هذا العنصر بنصوص معبرة نراها خير نموذج لتأكيد أهمية استحضار الجانب الاجتماعي في فهم مدى تكيف الجنود مع "الحياة العسكرية"، بل وفي نجاح الحملات العسكرية المعنية بالدراسة أو فشلها؛ ومن تلك النصوص قول ابن أبي زرع عن الجنود الذين حمل بهم يعقوب بن عبد الحق على الأندلس، إنه أثناء هذه الحملة، «**قنط بنو مرين من المقام بالأندلس، وتشوقوا إلى أولادهم وديارهم. فلما علم أمير المسلمين ذلك منهم جاز إلى العدوة**»[3]. وفي حديثه عن المشورة التي عقدها السلطان أبو ثابت عامر في شأن الاستمرار في حصار تلمسان بعد اغتيال سلفه أبي يوسف يعقوب، كان جواب من معه ضرورة فكه لـ«**أن الناس قد قنطوا في هذه البلاد ولهم بها عن أولادهم وعيالاتهم أربعة عشر سنة**»[4]. غير أن أهم نص يمكن أن نورده في هذا الصدد، ما نظمه الكفيف الزرهوني[5] عن حملة أبي الحسن إلى إفريقية، وقال فيه:

تَـرْجَـعْ الَخْبَـارْ لْطَّـامَّة الكُبْـرَى	**وُقَضِيَّـةْ حَـرْبنا مْعَ العَـرْبَـانْ**
قَالُو مَا خَضْنَا سِوَى أَرْض الصِّيـن	**لَوْ قَـالْ قُـومُوا لْهَا لَقُلْنَا أَيَّـا**
أُولَادْنَا تْيَتْمُـوا بْنَـات وُبْنِيـنْ	**وُنْسَانَـا تْرَمْلُوا وُنَحْنُ أَحْيَـا**

1- ثريا برادة، **الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1997م، ص. 25-26. حميد تيتاو، **الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني**، منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، سلسلة أبحاث 1، الدار البيضاء، 2009، طبع منشورات عكاظ، 2010، ص. 83-88، 129-136.

2- تيتاو، **الحرب والمجتمع**، ص. 199-202.

3- **الأنيس المطرب**، ص. 321.

4- المصدر نفسه، ص.389-390.

5- **ملعبة**، ص. 48-82-83

إن هذا الربط غير الواضح بين توقف الحملات العسكرية المعنية بالدراسة ورغبة الجند في العودة إلى زوجاتهم وأولادهم، يدفعنا إلى المغامرة بالنفاد إلى أعماقها ومحاولة فهم ما لم تقله صراحة. فهل نستطيع أن نبحث في ما وراء هذه النصوص، ونفهم بعضا من علاتها؟

الحقيقة أنه إذا كنا لا نقلل من أهمية الجمع الدقيق لأدبيات السياسة خلال العصر المريني[1] بين كسب قلوب الجند وعقولهم وبين توفير الأموال والحرص على إدرار الأرزاق عليهم[2]، ودور ذلك كله في نجاح الحملات العسكرية السلطانية أو فشلها[3]، فإننا نزعم أن ثمة عناصر أخرى لابد من أخدها بعين الاعتبار في مجال العناية بالجند، وفي مقدمتها تكيفهم مع الحياة العسكرية اجتماعيا ونفسيا، وكذا علاقاتهم بوسطهم "المدني"، وبجماعاتهم الأولية والمتضمنة لمجال انتمائهم القبلي أو الحضري ولأسرهم وذويهم. لذلك لا نظن أن كتب السياسة والأحكام قد أوردت عرضا، وإن بشكل محتشم، في نصائحها للسلطان لبعض العبارات من قبيل أن يجتهد «**في صرفهم عن الافتتان بأهلهم وديارهم، ومنعهم من المستغلات والمتاجر**»[4]، أو عندما تناقلت تلك القولة التي قالها أحد الأنبياء: «**لا يغزو معي رجل بنى بناء لم يكمله، ولا رجل تزوج امرأة لم يدخل بها**»[5].

1- تكاد الأدبيات الإسلامية في مجال السياسة تجمع على القول إن الركنين الأساسيين والضروريين لبناء الدولة والحفاظ عليها هما: الجند والمال. وعبارات «**الملك بناء والجند أساسه، فإذا قوي الأساس دام البناء**»، ثم «**الملك بالجند والجند بالمال**»، تتكرر في تلك الأدبيات لترسخ بديهية جوهرية في الفكر السياسي الإسلامي، مفادها أن أساس الدولة وبقاءها مرتبط أشد الارتباط بقوة الجند أو ضعفهم. وبناء عليه، خصصت كتب السياسة تلك صفحات مهمة لتذكير الأمير بضرورة العناية بالجند والاهتمام بأحوالهم، ضمانا لاستمرار حكمه ونجاح مشاريعه العسكرية. انظر، عز الدين العلام، **السلطة والسياسة في الأدب السلطاني**، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1991، ص. 27-160.

غير أن ما ينبغي التنبيه إليه، أنه بقدر ما ركزت كتب السياسة على دعوة الأمير إلى الاهتمام بأحوال الجند، فإنها ركزت أكثر على ثنائية جدلية تجمع بين الاهتمام بالجند وتوفير المال، ما دام أن «**كل واحد منهما متوقف على صاحبه مطلوب بمطالبه، فلا مال إلا بجيش ولا جيش إلا بمال**». أبو حمو موسى الزياني، **واسطة السلوك في سياسة الملوك**، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1279هـ ص. 121. ابن الخطيب، **الإشارة إلى أدب الوزارة – مقامة السياسة**، تحقيق ودراسة، محمد كمال شبانة، مطبعة الساحل، الرباط، ص. 134. وهي إشارات تحيل، مبدئيا على الأقل، إلى أن العناية بالجند المقصودة عند كل من كتب في هذا المجال تعني أساسا الجانب المادي دون غيره، وفي هذا الصدد أكد ابن خلدون، الذي حلل أسلوب اشتغال هذا النوع من الدول، أن «**مبنى الملك على أساسين لابد منهما، فالأول الشوكة والعصبية، وهو المعبر عنه بالجند، والثاني المال الذي هو قوام أولئك الجند، وإقامة ما يحتاج إليه الملك من الأحوال. و[إن] الخلل إذا طرق الدولة طرقها في هذين الأساسين**». **المقدمة**، ص. 230.

2- ابن رضوان، **الشهب اللامعة**، ص. 380. وخلال العصر المريني، يبدو أنه عادة ما كانت "الحياة العسكرية" للجنود الذين كان السلاطين يحشدونهم في حروبهم توفر لهؤلاء معظم حاجياتهم الاقتصادية. والنصوص المتوفرة في هذا الصدد تكشف عن صورة بوجهين؛ يتمثل الوجه الأول في أن جانب التحفيز المادي كان له دور رئيس في استجابة الجنود والمتطوعة للنفير العام الذي يسبق كل حملة، كما أن السلاطين المرينيين، خاصة في فترة قوة هذه الدولة، كانوا حريصين على توفير أرزاق الجند والإغداق عليهم بالنعم. وفضلا عن ذلك، فإن كثيرا ممن كانوا يقبلون على التجنيد أو يستجيبون لدعوة الحشد والاستنفار هم في الأصل من الفلاحين والرعاة والحرفيين وغيرهم الذين أغرتهم أموال الحرب وغنائمها، ففضلوا نشاطها عن عملهم الأصلي. تيتاو، **الحرب والمجتمع**، ص. 98-109، 189-194. أما الوجه الثاني، فيمثل عكس الصورة بشكل واضح؛ فقد كان أي تراجع في الإنفاق عن الجنود، أو الغياب المطول للجندي عن الديار، خاصة إذا لم تعد المشاركة في الغزو تغري بالغنائم والأموال، يمثل خطراً اقتصاديا محدقا به وبعائلته، وبالتالي يصبح مثلا التطلع للعودة إلى فلح الأرض و جني محصولها والاستفادة من عائدات نشاط النجعة أمراً ملحاً وضروريا. بل يمكن أن نضيف أن القبائل التي كانت تشكل النواة الرئيسة لجيش السلطان قد تفضل- أمام هذا الغياب- الغارة على جيرانها على المشاركة في حملات تطول دون أي إغراء مالي، وخاصة في الحملات الأخيرة التي بدأ فيها الجيش المريني يتكبد الهزائم. انظر، ابن الخطيب، **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب**، نشر وتعليق، أحمد مختار العبادي، مراجعة عبد العزيز الأهواني، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985م، الجزء 3، ص. 108-109.

3- أنظر للتفصيل في هذا المجال، تيتاو، **الحرب والمجتمع**، ص.189-199.

4- ابن الخطيب، **ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب**، حققه ووضع مقدمته حواشيه عبد الله عنان، مكتبة الخانجة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1981م، الجزء 2، ص. 321. ابن الأزرق، **بدائع السلك في طبائع الملك**، تحقيق علي سامي النشار، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، 1977-1978م، 1989، الجزء 1، ص. 201.

5- ابن رضوان، **الشهب اللامعة**، ص. 405-406.

تكشف المادة التي تمكنا من الاطلاع عليها عن أهمية دراسة الجوانب الاجتماعية والأسرية للجندي، باعتباره ربا لأسرة ومسؤولا عن حاجياتها، في فهم مدى تكيفه مع "الحياة العسكرية"، ومدى قدرته على استيعاب متغيرات غيابه المطول الذي تفرضه الحملات العسكرية على أسرته ودويه، ودور ذلك كله في نجاح هذه الحملات أو فشلها. وتفيض كتب النوازل بالعديد من الحالات التي كان فيها لغياب الزوج عن عائلته بقصد الغزو ضلع واسع في تضخم النزاع بين الجندي الزوج وزوجته، وفي تفكك أسر بكاملها، وفي أحيان أخرى في صعوبة اندماج الغائب بعد عودته. لذلك، لا نجد حرجا في القول إن ثمة هواجس كثيرة رافقت الجندي في غيابه أثناء الحملات العسكرية، وأثرت بشكل كبير في قدرته على الاستمرار في هذا الغياب، بل وفي تعريض هذه الحملات لإمكانية الفشل والإخفاق.

وقبل التفصيل في هذا الجانب، جدير بالإشارة التأكيد على أن النوازل التي نتوفر عليها في هذا الصدد حول قضايا غياب الأزواج، وما ترتب عنها من مشاكل اجتماعية، لم تفصح بما فيه الكفاية عن الدوافع الكامنة وراء هذا الغياب، وإن حددتها[1] في السفر للتجارة[2]، أو الاتجاه إلى المشرق لأداء فريضة الحج[3]، أو الخروج للغزو والحرب[4]. وحيث إن الغزو مثل سمة هامة من سمات هذه المرحلة، فإننا نميل إلى افتراض لا تفتأ النصوص المتوفرة تؤكد إمكانية صحته، ويتعلق بكون السبب الأخير وراء جزء مهم من القضايا التي طرحت في نوازل الفترة عن غياب الأزواج، وما يتلوه من مشاكل اجتماعية. وحتى دون هذا الافتراض، فإننا نعتقد بإمكانية اعتماد النوازل التي تهم تبعات الغياب التي تخص الزوج دون ذكر سبب ذلك الغياب، على اعتبار أن أي غياب كيفما كانت اسبابه قد يفضي بالضرورة إلى نفس النتائج، مادام أن الجند لم يستثنوا بإجراءات احترازية تمنع شكوى المرأة من قلة ذات اليد مثلا[5]. وكيفما كان الحال، فإن ما نسعى إلى تأكيده هنا هو أن ما كان يعتمل داخل المجتمع من قضايا تخص غياب الأزواج مهما كانت أسبابه كانت تجعل الجندي الغائب يتصور نفسه عرضة له كلما طالت غيبته.

أ- هاجس غياب من ينفق على الزوجة والأبناء

إن النصوص التي أوردناها سلفا عن رغبة الجنود في العودة إلى الديار بعد طول غياب، والإشارات التي قدمناها عن مشكل الإنفاق الذي اعترض بعض الحملات موضوع الدراسة، وما لحقه من تذمر وتمرد للجنود على السلطان، تحمل في طياتها عناصر أساسية

1- حددتها نازلة سئل عنها الفقيه ابن القاسم بشكل عام في «**حج أو غزو أو سفر من الأسفار**»، الونشريسي، **المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، الرباط، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م، الجزء 6، ص. 12.

2- الونشريسي، **المعيار**، الجزء 3، ص. 109-110.

3- الونشريسي، **المعيار**، الجزء 4، ص. 402.

4- الونشريسي، **المعيار**، الجزء 3، ص. 337-338.

5- أنظر عن هذه القضية، تيتاو، **الحرب والمجتمع**، ص. 386-388.

تتعلق بقضية الإنفاق على زوجات وأولاد الجنود زمن غيابهم، مما يحيل إلى هاجس رافق الجند كلما طالت غيبتهم، أو توقفت سبل الإنفاق عليهم، وأثر بشكل أو بآخر في تكيفهم مع "الحياة العسكرية"، بل وقد يكون له دور في إخفاق تلك الحملات العسكرية. ومما يؤكد مثل هذا الربط، ما تدوول في كتب النوازل الفقهية من قضايا تخص نساء وزوجات رجال غائبين أو أسرى أو مفقودين، وما أثاره وضعهن من مشاكل اقتصادية واجتماعية؛ فقد تحدث الوليدي[1] عن «**مسألة نزلت مرارا**» تخص نساء غاب عنهن أزواجهن لأسباب متعددة ذكر منها الوقوع في الأسر، وليس لها ما تعيل به نفسها وأبناءها، وتشكو الضيعة. كما سئل أبو عبد الله القوري عن امرأة غاب عنها زوجها في حملة عسكرية طالت مدتها، ورفعت أمرها إلى القاضي تريد الطلاق بعدم النفقة، وأثبتت ما يجب في ذلك من الزوجية والغيبة[2].

علاوة على ما سبق، تناولت نوازل العصر المريني قضايا كثيرة عن زوجات الغائبين، لا نستبعد أن يكون الغزو من أسباب هذا الغياب، عانين من مشكل الإنفاق، وأرفقت حديثها عنهن بعبارات كثيرة النزول[3]، من مثيل «**في ضيق من الحال**»، و«**في ضيق من المال**»، و«**لا عندها ما تكتري به**»، و«**ليس في البلاد من يقوم بها**»، و«**خافت على نفسها وحالها الفقر**»، و«**هي محتاجة**»، إلى غير ذلك من العبارات التي تثبت ما كان لغياب الزوج بقصد الغزو من أثر في الوضعية المادية لزوجته وأولاده.

وإذا كان بعض الأزواج حاولوا التغلب عما كان يلحق بزوجاتهم من ضرر بسبب مغيبهم من خلال المطالبة بمرافقتهن خلال الحملات العسكرية[4]، وإذا كان من الممكن الاعتقاد بأن كثيرا من الزوجات استطعن تحمل مصاريف بيت الزوجية والاضطلاع بمهام الإنفاق على الأبناء[5]، فإن ما نملكه من النصوص تؤكد أن غيرهن لم يجدن بداً من إعلان تضررهن، فطالبن بحسم أمرهن وتمكينهن من التطليق[6]. ومن ذلك، من استفتي «**عمن فقد في هزيمة المسلمين بأرض الغربية منذ عام كامل، وفقد فيها أناس كثيرون، ولم تتحقق حياتهم من وفاتهم، ونساؤهم يطلبن من القاضي رفع الأمر**»[7]، فضلا عما أثارته قضية النفقة على نساء مفقودي معركة طريف من قضايا أجاب عنها فقهاء هذه المرحلة[8].

1- أبو الفضل راشد الوليدي، **الحلال والحرام**، دراسة وتحقيق، عبد الرحمان العمراني الإدريسي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، بالمملكة المغربية، مطبعة فضالة، المحمدية، 1410 هـ/ 1990 م، ص. 135.

2- العلمي، **نوازل العلمي**، الجزء 1، ص. 317. الونشريسي، **المعيار**، الجزء 4، ص. 19.

3- ابن هلال، **الأجوبة**، رتبها علي بن أحمد الجزولي الجياني، طبعة حجرية، دون مكان الطبع، دون تاريخ، ص. 58-69-70-114. الونشريسي، **المعيار**، الجزء 3، ص. 18-97-114-115-125-126-185-187-353. الجزء 4، ص. 19-114.

4- الونشريسي، **المعيار**، الجزء 2، ص.114.

5- المصدر نفسه، الجزء 5، ص. 175.

6- النوازل التي أوردناها في المتن والهوامش السابقة والتي طرحت مسألة تضرر الزوجة من غياب الزوج أو أسره أو فقدانه ومشكل النفقة، كانت مقترنة بالمطالبة بالفراق والطلاق. الونشريسي، **المعيار**، الجزء 3، ص. 353. الجزء 4، ص. 114-115.

7- الونشريسي، **المعيار**، الجزء 3، ص. 338 .

8- المصدر نفسه، الجزء 4، ص. 490-491.

ب- هاجس فراق الزوجة:

يجد هذا الهاجس ما يؤكده فيما تناولته نوازل المرحلة من خلافات تخص العلاقات الأسرية لبعض الأزواج مع زوجاتهم وتتعلق بقضية غيابهم، فالظاهر أن هاجس إعلان المرأة عن تضررها من مغيب الزوج، أو أخذها بشرط المغيب إن كانت من اللواتي وثقن هذا الشرط في عقد النكاح[1]، رافق جندي هذه المرحلة خاصة إذا كان لا يرجو فراقها أو فراق أولاده، فضلا عن خوفه من تكاليف الطلاق، وحضانة وإرضاع الأولاد[2]، وما تتطلبه نفقة العدة[3]، وكذا مطالبة المرأة له بما لها عليه من ديون أو كالئ صداق ثقيل[4]، إلى جانب مصاريف الزواج من جديد إن طلقها[5]، كلها هواجس، مجتمعة أو متفرقة، لابد أن الجندي كان يستحضرها كلما طالت غيبته عن زوجته وأهله، وتجعله يعتقد في قرارة نفسه أنه سيتعرض لمثل هذه المواقف التي تدوولت في مجالس القضاء وداخل المجتمع، وتأجج من تذمره من طول الغياب، مما يحيل إلى وضع اجتماعي نفسي مهلهل كفيل بتعريض أية حملة للفشل كلما انتشر في صفوف الجند.

وإذا كانت بعض نساء الجنود استطعن حفظ ود أزواجهن، وحرصن على الحفاظ على علاقتهن بهم والابتعاد عن دروب القضاء؛ ومنهن تلك المرأة من أهل سبتة التي «**أسر زوجها ولها منه عدة أولاد فضاق عليها الحال**»[6]، والتجأت إلى الولي ريحان الأسود فـ«**شكت إليه أمر زوجها وضعف حالها**»[7]. ومنهن أيضا النسوة اللواتي لجأن إلى السلطان أبي عنان يستعطفنه حتى يتدخل لفك أسر أزواجهن، «**فجعل الله من امرهم على يديه خرجا ومخرجا**»[8]. فإن البعض الآخر منهن أججن الخلاف مع أزواجهن الغائبين، فاحتججن لدى القاضي بدعوى المغيب[9]، وانقضاء الأجل المشروط في عقد النكاح[10]، أو بدعوى النفقة والخوف من الفاقة والحاجة[11].

1- يبدو ان كثرة غياب الازواج عن بيت الزوجية أفضى إلى انتشار توثيق بعض النساء لشرط يحدد مدة مغيب الزوج، وكل تجاوز لهذه المدة يمنح لها حق المطالبة بالطلاق. الونشريسي، **المعيار**، الجزء 4، ص. 114-483. محمد بن هارون الكناني، **اختصار النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام**، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم 728 د. رقم الميكرو فيلم 3172، ص. 17.

2- الونشريسي، **المعيار**، الجزء 4، ص. 24.

3- المصدر نفسه، الجزء 4، ص. 344.

4- المصدر نفسه، الجزء 4، ص. 7-14.

5- يظهر ذلك من خلال بعض أمثال العامة؛ قالوا، «**زوجوه حوجوه**». الزجالي، **ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام (أمثال العوام في الأندلس)**، تحقيق ودراسة، محمد بن شريفة، مطبعة محمد الخامس، فاس، 1971، الجزء 2، مثل رقم 1035، ص. 235. الوزان، **وصف إفريقيا**، الجزء 1، ص. 334.

6- ابن الزيات التادلي، **التشوف**، ص. 159.

7- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

8- النميري، **فيض العباب**، ص. 191-192.

9- ابراهيم الكلالي، **المسألة الشهية الامليسية على عوائد البلادالغريسية**، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم د2577، ص. 134-135. مجهول، **أجوبة نفيسة لفقهاء غرناطة**، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم د1447، ضمن مجموع، ص. 211. الونشريسي، **المعيار**، الجزء 3، ص. 230-318.

10- الكناني، **اختصار النهاية والتمام**، ص. 17.

11- ابن غازي، **الكليات في المسائل الجارية عليها الأحكام**، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم د1729، ضمن مجموع، ص. 109. الونشريسي، **المعيار**، الجزء 3، ص. 318. الجزء 4، ص. 19. العلمي، **نوازل العلمي**، الجزء 1، ص. 317.

د- هاجس الاندماج بعد العودة

من الهواجس التي قد تعترض ذهن الجندي كلما طالت غيبته ما يتعلق بوضعه في بيته وأسرته ما بعد العودة من الحملة العسكرية، خاصة مع كثرة ما تدوول من قضايا تخص تطليق الزوجة لنفسها وزواجها من زوج آخر، ومصير أبنائه وأمواله. واعتبارا لمثل هذه التعقيدات التي تخص الجنود في غيبتهم، فقد اهتم الفقهاء بهذه القضايا، وحاولوا وضع بعض الضوابط التي تحكمها مراعاة لمال وزوج وولد الغائب إن قدر له الغياب الدائم، ومراعاة لأحواله الشخصية إن قدرت له العودة من جديد. فاعتبروا أن من كان لزوجته عليه شرط المغيب أخذت به إن شاءت، ومن لم يترك لزوجته في غيابه للغزو نفقة طلقت عليه بحكم عدم استيفائها. أما في حالة غياب شرط المغيب وتوفر النفقة، فقد كان على الزوجة أن تطلب من القاضي مكاتبته في شأنها، إن كان مكان الغيبة معلوم[1]. أما إذا كان غير معلوم، فحكمه حكم المفقود، ويعمر حسب المكان الذي حارب فيه مع الجيش، ويكون على زوجته انتظاره أمد التعمير، وبعده يأخذ الغائب بحكم الميت فتعتد زوجته وتقسم تركته[2].

وأما الحكم في مال وزوج الأسير، فقد اعتبر الفقهاء أنه إن كان لزوجته شرط مغيب حق لها إشهاره عند القاضي، وإن لم يكن لها شرط قامت عليه بعدم النفقة إن لم يترك لها شيء. وإن ترك مالا أنفقت منه وهي في عصمته أبداً حتى يثبت موته أو ينصر طائعاً أو ينقضي تعميره[3]، أي القدر الذي يمكن أن يعيشه أي إنسان آخر.

وإذا كانت كتب الأحكام راعت مصلحة الجندي الغائب رجاء في عودته، ومصلحة أهله وزوجته في حالة عدم عودته، إلا أننا لا نعدم من القرائن ما يؤكد أن من الزوجات من سارعت إلى إثبات موت الزوج[4] وإشاعته[5]، ومن عملت على إثبات عدم النفقة رغم وجود ما تنفق منه[6]، ومن رفضت انتظار غائبها رغم تطوع بعض أقاربه بالنفقة عليها، ومن أرادت التعجيل في الطلاق لتتمكن من كالئ صداقها من أملاك الغائب[7]. فضلا عن أهل الغائب الذين أمعنوا في البحث عن «**الوجه الذي يتوصل به (...) ورثته لقسمة ماله**»[8]، ومن رفض طلب الزوجة في بيع أملاك الغائب لتنفق منها[9]، ومن رمى بنظره إلى «**ربع تركه الغائب**»[10]،

1- ابن هارون الكناني، **اختصار النهاية والتمام**، ص. 55. ابن غازي، **الكليات**، ص. 109. الونشريسي، **المعيار**، الجزء 4، ص. 483. العلمي، **نوازل العلمي**، الجزء 1، ص. 317-319-320-276.

2- الكناني، **اختصار النهاية والتمام**، ص. 56-57.

3- المصدر نفسه، ص. 57.

4- الونشريسي، **المعيار**، الجزء 4، ص. 239.

5- المصدر نفسه، الجزء 3، ص. 289.

6- المصدر نفسه، الجزء 4، ص. 254-255.

7- العلمي، **نوازل العلمي**، الجزء 1، ص. 317-320.

8- الونشريسي، **المعيار**، الجزء 4، ص. 490.

9- العلمي، **نوازل العلمي**، الجزء 1، ص. 319- 320.

10- الونشريسي، **المعيار**، الجزء 3، ص. 318.

أو مال «**تركه بيد وكيل**»[1]، والشـريك الذي يستهلك مال شريكـه الغائـب[2]، إلى غـير ذلـك مـن الحالات التي تثبت أن من الأهل والزوجات من تطلعن إلى تأكيد موت الغائب للإجهـاز عـلى أمواله وتقسيمها. ولا نستبعد أن مثل هذه المعرات التي كانت تلحق بالغائبين إن قدرت لهم العودة هو ما دفع ببعضهم إلى كتابة وصية قبـل سـفره وخروجـه ويـشهد عليهـا[3]، إمعانـا في الحفاظ على ماله، ومال ورثته إن لم تكتب له العودة.

وإذا كانت عبارات "الغياب" و"الفقدان"، و"الأسر" تحيل في معظم معانيها، في مـصادر المرحلة، إلى عدم العودة، وتعبر عن مرادف آخـر للمـوت، فإنهـا تفيـد أيـضا إمكانيـة العـودة والرجوع. وإذا كانت أحكام الفقهاء في مدد التعمير راعت هذا المعنى، إلا أننا نصادف حالات كثيرة لغائبين ومفقودين في حكم المـوت تمكنـوا مـن العـودة إلى أوطـانهم بعـد سـنوات مـن انقطاع حكم التعمير. وهو ما لا تخفيه أحكام المرحلـة؛ فقـد كتـب ابـن غـازي[4] في كلياتـه أن «**كل من شهدت له بينة بموته، وعدت ورثته وقسمت تركته، وتزوجت زوجته ثم قدم حيـا، فإن عزرت البينة بشبهة أخذ ما وجد من تركتـه، ومـا بيـع كـان أحـق بـه بـالثمن، وتـرد لـه زوجته**»، وهو ما يحيل إلى بعض القضايا المتعلقة بصعوبة اندماج الجندي بعد عودته، ومنهـا ما يخص ماله[5] وزوجته[6] وأولاده[7].

كلها قضايا نعتقد أن الجنود كانوا يستحضرونها كلما طالت غيبتهم عن أوطانهم، مـما كان يؤجج من حدة تذمرهم وسخطهم من طـول مـدة الحملـة، بـل إننـا نعتقـد أن لهـا دور أساس في فشل تلك الحملات العسكرية وانتهائها إلى ما انتهت إليه.

2- الجانب النفسي في تكيف الجنود مع "الحياة العسكرية"

إلى جانب الجوانب الاجتماعية، نميل إلى التأكيد على عامل نفسي - اجتماعـي، إن صـح التعبير عنه بالدافع الجنسي، كان له دور مهم في إذكاء حدة التذمر لدى الجنود من تغيبـاتهم الطويلة، وربما كان له دور في فشل تلك المشاريع العسكرية. وهو ما يمكـن أن نستـشفه دون عناء من عبارات الإرهـاق التـي أوردناهـا سـابقا[8]. وكـذا في كتـب الأحكـام والـسياسة التـي لم تتجاهل هذا الدافع لدى الجنود، حيـث أوصـت الأمـير أن يجتهـد في «**صرفهـم عـن الافتتـان بأهليهم وديارهم**»[9]، مرددة الأثر المشهور: «**لا يغزو معـي رجـل (...) تـزوج امـرأة لم يـدخل بها**»[10].

1- المصدر نفسه، الجزء 4، ص. 490.

2- المصدر نفسه، الجزء 8، ص. 179

3- الونشريسي، **المعيار**، الجزء 6، ص. 12.

4- ابن غازي، **الكليات**، ص. 129.

5- الونشريسي، **المعيار**، الجزء 8، ص. 179. العلمي، **نوازل العلمي**، الجزء 1، ص. 322.

6- الونشريسي، **المعيار**، الجزء 2، ص. 430. الجزء 4، ص. 19.

7- مجهول، **أجوبة نفيسة لفقهاء غرناطة**، ص. 219.

8- ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. 321-389.

9- ابن الخطيب، **ريحانة الكتاب**، الجزء 2، ص. 321. ابن الأزرق، **بدائع السلك**، الجزء 1، ص. 201.

10- ابن رضوان، **الشهب اللامعة**، ص. 405-406.

إن هذا الشكل من التحليل لتذمر الجند من طول الغياب، يمكن قراءته بشكل أعم من خلال حضور النساء في الغزوات المرينية[1]؛ فقد كان أبرز ما ميزها هو حفاظها على التقليد البدوي الزناتي القاضي بمرافقة النساء إلى ساحة الحرب[2]، حيث جرت العادة أن يأمر الأمير المريني، «**جميع قبائل بني مرين أن يخرجوا بجميع عيالاتهم ونجبائهم**»[3]، فتخرج النساء «**في الهوادج والمراكب والقباب المزينات باديات الوجوه**»[4]. ويبدو أن هذا التقليد ظل سائداً حتى عهد أبي عنان على الأقل[5].

إلا أنه ينبغي أن نسجل ملاحظة أساسية، وهي أن حضور النساء في حملات بني مرين، على ما يبدو، تضاءل واقتصر فيما بعد على حريم السلطان والحاشية، إذ غدا من الصعب مع خروج بني مرين إلى الأندلس أو إفريقية، مرافقة كافة نساء الجنود إلى الحرب، مما عزز من النقص الجنسي لدى الجنود، وهو ما يفهم من النصوص التي أوردناها سابقا عن تشوق بني مرين لأهلهم وزوجاتهم[6].

ولا تعوزنا الدلائل التي تثبت أهمية هذا العامل في تفسير معاناة الجند من التغيبات الطويلة على عيالاتهم؛ فهذا رجل اضطرته هذه الوضعية إلى أن يسأل الفقيه أبا العباس المريض، أنه يريد الخروج مع الجيش إلى الغزو، ويود «**التوجه معهم بزوجته لاحتياجه إليها في ضرورياته**»[7]. وهذا آخر يغيب مع الجند في الأندلس، فيضطر إلى الزواج من رابعة على الثلاثة اللواتي خلفهن في العدوة[8]. وآخر «**سألت منه زوجه الزهراء القاطنة بفاس أن يحرم لها زوجه عزة بتلمسان ويطلقها**»[9]، إذ لا يستبعد أن يكون تزوجها بعد كثرة الحملات العسكرية على هذه المدينة واحتياجه إليها لطول غيابه عن الأولى.

على أن أبرز نموذج يعبر بوضوح عن العامل الجنسي في تفسير تذمر الجند من طول الغياب، نصادفه عند السلطان أبي الحسن المريني نفسه الذي اضطر بعد مقتل زوجته بطريف أن يقدم على الزواج بطريقة يفهم من النص أنها لا تختلف كثيراً عن زواج المتعة؛ ففي حديث ابن خلدون عن أحمد الرغيني من طبقة كتاب الأشغال بسبتة، ذكر «**أن السلطان أبا الحسن تزوج أمه [أم أحمد الرغيني] ليلة إجازته من واقعة طريف وافتقاد حظاياه حتى لحق به الحرم من فاس، فردها إلى أهلها**»[10].

1- علي حامد الماحي، **المغرب في عهد أبي عنان**، ص. 158.

2- نجد هذا التقليد أيضا عند القبائل العربية. مصطفى أبو ضيف أحمد، **أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين**، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1982م، ص. 232.

3- ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972 م، ص. 129.

4- المصدر نفسه، ص. 115. **الأنيس المطرب**، ص. 305.

5- النميري، **فيض العباب**، ص. 93-94.

6- ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. 389.

7- الونشريسي، **المعيار**، الجزء 2، ص. 114.

8- المصدر نفسه، الجزء 4، ص. 483.

9- المصدر نفسه، الجزء 4، ص. 102. الجزء 3، ص. 148.

10- ابن خلدون، **العبر**، الجزء 7، ص. 449-450.

وإذا كان هؤلاء الجند، بمن فيهم السلطان، خففوا على أنفسهم ثقل هذا الدافع بلجوئهم إلى الزواج في ظل غيبتهم عن أهليهم، أو بتسريهم بالسبايا التي يحصلون عليها في غنائم الغزو[1]، فقد بات بديهيا، أمام طول الحملات العسكرية وبُعد الجندي عن زوجته، أن يلجأ إلى ممارسة الجنس خارج إطاره الشرعي. وقد سبق لأحد كتاب الأحكام[2]، خلال هذه المرحلة، أن نصح الأمراء أن «**أنهوا جيوشكم عن الزنا، فما زنى جيش قط إلا سلط عليهم المؤتان**».

غير أن مثل هذه الأحكام تعكس واقعاً حدث بالفعل، فقد ورد في إحدى النوازل وإن جاءت متأخرة عن المرحلة المدروسة، أنه «**زنى رجل في جيش المسلمين، وهم في أرض العدو، وخيف إن أقيم عليه الحد (...) مفسدة لشجاعة الزاني ولغيره كذلك**»[3]. بل إن الفقهاء أفتوا أنه يؤخذ الزاني بالحد ولا ينفذ عليه، لأن في ذلك جر لتذمر الجند وإفساد لشجاعتهم في الغزو[4]، مما يثبت تفشي هذه الظاهرة في صفوف الجنود.

ولا نستبعد أن يضطر الجند المغاربة في غياباتهم الطويلة عن أهليهم إلى اللجوء إلى ممارسة الجنس خارج مؤسسته الشرعية، أو التنفيس عن هذا المشكل من خلال ممارسات استنكرها أهل المدن التي توقفت فيها المحلة السلطانية؛ فقد عبرت أمثال العامة بالأندلس عن هذه الظواهر حين أكدت جاذبية الغازي المغربي دون غيره بالنسبة للعاهرات[5]، بل إن بعض النصوص الأندلسية أثبتت أن هؤلاء تحرشوا بنساء أهل الأندلس وزوجاتهم[6]، فعبر هؤلاء عن تذمرهم من الجند الغازي[7]. وذكر ابن الخطيب[8] أن أهل رندة اتفقوا مع المرينيين أن ينزلوا لهم عن البلد، على شروط منها «**ألا ينزل غاز من المغاربة بدار من دور المدينة**»، لأنهم لا يستصيغون خشونتهم وسلوكهم. ومن ذلك ما وقع به أمر السلطان النصري أبي عبد الله محمد بن محمد بن يوسف بن نصر (633 –701هـ/1235-1301م) «**لمشتكي من ضرر الجندي المنزل بداره، وقد قذفه بالتعرض لزوجته فقال: يخرج هذا النازل، ولا يعوض بشيء من المنازل**»[9].

إن هذا التفسير النفسي - الاجتماعي الذي وسمناه بالدافع الجنسي ينمو في الغالب حين تتوفر له العوامل، وقد أكدت بعض الدراسات المتخصصة أن التوهج الجنسي يحدث

1- ابن هلال، **أجوبة ابن هلال**، ص. 61. الونشريسي، **المعيار**، الجزء 1، ص. 69. الجزء 4، ص. 275-276. الجزء 9، ص. 235-240.

2- ابن هذيل، **عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة**، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم 581 د، ص. 20.

3- العلمي، **نوازل العلمي**، الجزء 1، ص. 115.

4- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

5- قالوا، «**فقوس البربر، خشن حلو**». الزجالي، **أمثال العوام**، القسم 2، مثل رقم 1764، ص. 404.

6- يذكر أحد الباحثين أن الأندلسيين أرسلوا كثيراً من الشكاوي إلى السلاطين المغاربة، عبروا فيها عن ضيقهم عن أولئك الذين يفدون عليهم برسم الغزو، والجهاد أو في سلك الجند، انظر الزجالي، **أمثال العوام**، مقدمة المحقق، القسم 1، ص. 207.

7- قالوا، «**كل ما يجي من الغرب مليح، إلا بنادم والريح**»، الزجالي، **أمثال العوام**، مثل رقم 1082، القسم 2 ، ص. 253. وقالوا أيضا، «**عطي للبربري شبر، طلب ذارع، عطيه ذراع، ايطلب مرى فاش اتمتع**»، المصدر نفسه، القسم 1، ص. 207. وأيضا، «**الغازي والفار، لاتعلمهم باب الدار، إيديه في القصعة، أو عينيه فمولاة الدار**»، المصدر نفسه، القسم 2، مثل رقم 175، ص. 45.

8- ابن الأحمر، **نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان**، دراسة وتحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1967، مقدمة المحقق، ص. 42.

9- ابن الخطيب، **اللمحة البدرية في الدولة النصرية**، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، 1978م، ص. 51.

بشكل كبير أثناء الاحتفالات العامة، أو حين الحشد العسكري[1]. ففي تلك الحالات، وإذ لا يحصل الإشباع بالطرق الشرعية، فإن أساليب التكيف غير الواعية تأخذ الدور الأول[2]. فالفصل بين الجنسين[3] الذي تحتمه الحملات العسكرية لا يؤدي بالضرورة إلى مجتمع نقي وطاهر من جميع أنواع العلاقات الجنسية غير الشرعية، بما فيها الشذوذ والمثلية الجنسية[4]. إنها في الغالب ظواهر «**تنشأ في الجماعات ذات الجنس الواحد، بين الجنود، بين الطلاب، في المجتمع الذي يباعد بقوة بين الجنسين**»[5]. وهو ما لاحظه أحد الباحثين في المجتمعات التي تنتشر فيها ظواهر مثل الحرب والتصوف[6].

وتمثل النازلة التي سئل عنها الفقيه أبو عبد الله القوري عن رجل صوفي متمرد أباح لجنده كثيراً من المحضورات الجنسية أبرز نموذج لهذا التفسير؛ حيث «**استضاف إلى مذهبه فئة غاوية دعدع بشوكتها الجوانب والأرجاء، فاكتسح الأموال وقتل الرجال (...) محتالا بما نصبه من هذه الأشراك المورطة على اقتياد جيش ونصب راية، والرعاع الأغفال يدخلون فيما شرع لهم من الضلال، ويستحلون ما أحل لهم من غير الحلال، من غير استثناء للأموال عن الفروج ولا للفروج عن الأموال، جاعلين قص الشعر شعاراً يتميزون به (...) وقد أسقط عدة الوفاة عن أزواج من قتل بسيفه، وأباح لكل من كان منهن بعد سبعة أيام إلى أشياعه وصنفه، واصفا لهم بالمريدين**»[7].

إجمالا، فإن الغياب المتواصل للجند بعيدا عن زوجاتهم خلق لديهم شعورا بالاغتراب، وعزز من الحرمان الجنسي لديهم مما أفضى إلى بروز أساليب للتكيف معه تراوحت بين الزواج والتسري والعلاقات الجنسية غير المشروعة.

وإلى جانب المشكل النفسي المرتبط بالبعد عن الزوجة، وما كان يترتب عنه من غياب الإشباع الجنسي لدى الجنود، نميل إلى التأكيد على عامل نفسي آخر آرق الجنود المتزوجين،

1- علي زيعور، **في العقلية الصوفية ونفسانية التصوف، نحو الاتزانية إزاء الباطنية والأوليائية في الذات العربية**، دار الطليعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1979، ص. 133.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- راجع، عبد الصمد الديالمي، **المعرفة والجنس، من الحداثة إلى التراث**، منشورات عيون المقالات، مطبعة دار قرطبة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، 1987، ص. 100-101.

4- لا نستبعد انتشار مثل هذه الظواهر الشاذة في جيش يقضي غالب أوقاته في محلات عسكرية متنقلة مع طابعها الذكوري المسيطر، وغياب جنس النساء، فضلا عن وجود المماليك الروم، الذين كانوا مجالا للتقول في الشعر ومغازلتهم، فقد قال شيخ الغزاة المرينيين في الأندلس أبو الحسن علي بن بدر الدين في مملوك له وسيم من أبناء الروم يسمى فارحاً،

اسم فلان هيين	يصبي النهى تقريبه
حروفها ثلاثة	ثلها مقلوبة

ابن الأحمر، **نثير الجمان**، ص. 74.

5- زيعور، **في العقلية الصوفية**، ص. 133.

6- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

7- الونشريسي، **المعيار**، الجزء 2، ص. 396. يتعلق الأمر بفتنة عمرو بن سليمان المغيطي التي استمرت زهاء عشرين سنة. راجع لمزيد من التفصيل محمد فتحة، «البدعة بين سلطتي الفقهاء والمتصوفة، أمثلة من الغرب الإسلامي أواخر العصر الوسيط»، ضمن **دفاتر البحث**، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق، الدار البيضاء، المجلد 1، العدد 1، دجنبر، 2001، ص. 47.

ويتعلق بهاجس الخوف من خيانة الزوجة نتيجة كثرة غيابه. ويجد مثل هذا التحليل مصداقيته في ما أوردته النوازل الفقهية عن زوجات اضطررن إلى المطالبة بالتطليق لا بسبب النفقة، بل بسبب غياب الزوج المستمر، وما يترتب عنه من فراغ جنسي عانت منه بعض تلك الزوجات؛ فقد ترددت في نوازل الحقبة المرينية قضايا تتعلق بنساء أصررن على مطلب الطلاق رغم وجود ما ينفقن منه؛ من مثيل ما استفتي فيه أبو عبد الله القوري في رجل غاب عن زوجته في زمن الحرب مدة خمسة أعوام وترك بعض أملاكه، ورفعت أمرها إلى قاضي الناحية وطلبت منه أن يمكنها من كالئ صداقها من قبل الزوج المذكور من الأملاك، وما بقي يعدى لها فيه للنفقة وأرادت بذلك تعجيل الطلاق[1].

ونعتقد أن تضرر المرأة من الناحية الجنسية والخصاص الذي واجهته في غياب قرينها هو ما كان وراء إصرار تلك الزوجات على التطليق رغم توفر سبل الإنفاق، ولا أدل على ذلك من أن المطالبة بالطلاق غالباً ما اقترنت برغبة الزوجة في الزواج من آخر في معظم نوازل المرحلة؛ وقد رددت نصوص المرحلة هذا المطلب في عبارات توحي بخصاص جنسي لدى المرأة المتضررة، ومنها[2] «**تخاف على نفسها الضياع**»، و«**لحق الزوجة من ذلك ضرر كثير**»، و«**شكت الضيعة**»، و«**يخاف ضياعها**»، و«**خيف عليها الفساد**»، و«**إن لم تتزوج ضاعت**»، و«**خاف أهلها أن تضيع**»... إلى غير ذلك من العبارات التي تحمل معنى الضياع بشقيه المادي والمعنوي، ولا شك أن هذا الأخير يفيد خوفها من السقوط في الخيانة بفعل الخصاص الجنسي[3].

وعلى الرغم من ندرة النصوص التي تكشف هذا الجانب وتنير بعضا من خباياه، فإن المتوفر منها يؤكد الحاجة الجنسية التي عانت منها بعض الزوجات؛ فقد وردت في "معيار" الونشريسي نازلة عن زوج «**غاظته زوجته فحلف بطلاقها ليفشين سرها وليغيظنها، وهو يعلم أن السفر والغيبة مما يغيظها**»[4]. مما يكشف عما كان يلحق الزوجة من ضرر معنوي نتيجة غياب زوجها، دليلنا في ذلك ما أورده النفزاوي في "روضه"[5] عن المرأة التي سئلت من قبل رجل عن مقدار ما يمكن للمرأة أن تصبر على زوجها فقالت: «**المرأة الحسيبة الخيرة تصبر على النكاح ستة أشهر، والمرأة التي ليس لها أصل ولا لها عرض لو صابت ما قام لها الرجل عن صدرها**».

ونجد ضمن التراث الإسلامي بعضا من القرائن التي تعضد مثل هذا التفسير؛ وفي هذا الصدد، يمكن استحضار حكاية أوردها الأصبهاني لتأكيد ذلك تتعلق بزوجة غاب عنها زوجها،

1- الونشريسي، **المعيار**، الجزء 1، ص. 317.
2- الوليدي، **الحلال والحرام**، ص. 135. الونشريسي، **المعيار**، الجزء 4، ص. 267-268. الجزء 10، ص. 125.
3- الحسين بولقطيب، الهلالي الجيلالي، «حول مسألة الجنس بمغرب العصر الوسيط، مقدمات من أجل بحث»، **مجلة دراسات عربية**، العدد 10-11-12، 1993م، ص. 103.
4- الونشريسي، **المعيار**، الجزء 4، ص. 285.
5- محمد بن محمد النفزاوي، **كتاب الروض العاطر في نزهة الخاطر**، طبعة حجرية، مطبعة أحمد بن الحاج الطيب الأزرق، 1899-1900، ص. 40-41.

ولحق بها من ذلك ضرر كبير، فقد «**خرج عمر بن الخطاب ليلة يطوف بالمدينة، فمر بامرأة تقول : تطاول هذا الليل تسري كواكبه *** وأرقني أن لا خليل ألاعبه. ثم تنفست وقالت، هان على ابن الخطاب وحشتي في بيتي وغيبة زوجي عني، فلما أصبح بعث إليها نفقة، وكتب إلى عامله يرد زوجها، وسأل ابنته حفصة، ما مقدار ما تصبر المرأة ؟ قالت، أربعة أشهر**»[1]. وفي رواية أخرى، أوردها الكيناني[2]، أن عمر ابن الخطاب سأل «**حفصة كم تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت، ستة أشهر. فكان لا يبعث إلى الغزو بعثا إلا ستة أشهر بدون نظر لأهل البعوث وأنسابهم**».

ومن القرائن التي تثبت الضرر الجنسي الذي كانت تعانيه زوجة الغائب بقصد الحرب، ما جاء في حديث ابن الحاج النميري[3] عن تدخل السلطان أبي عنان لفك بعض الأسرى بطلب من نسائهم، فأصبحن بعد أن حقق السلطان رغبتهن في عداد النساء «**الحافظات لفروجهن والمطهرات لمضاجع جنوبهن، فالعرض مصون (...) والحبيب مسرور (...) والشمل مجموع**»[4]، وفي هذا النص ما يؤكد أن من النسوة من لم تستطع صبراً على غياب الزوج، فارتمت في أحضان الخيانة الزوجية[5].

وتظل النازلة التي وقعت في فاس، وعرضت على قاضي الجماعة أبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقري سنة 748هـ/1347م أبرز مثال لتأكيد ذلك؛ إذ تشير إلى أحد الفاسيين الذي فقد في وقعة طريف سنة 741هـ/1340م، ثم أتت زوجته بولد منه بعد مرور سبع سنوات على فقدانه وبالتحديد في رمضان سنة 748هـ مدعية أنها من زوجها المفقود[6].

كلها قضايا نميل إلى الاعتقاد أنها شكلت هواجس بالنسبة للجندي الزوج وهو غائب عن موطنه وأسرته، وفي ظروف لا تسمح بإمكانية التواصل المستمر مع الأهل والزوجة، وتخفيف بعض من التوتر الناتج عن تلك الهواجس.

1- أبو القاسم حسن بن محمد الراغب الأصبهاني، **في المجون والسخف، ضمن الجنس عند العرب، نصوص مختارة**، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، الطبعة الأولى، 1997، الجزء 1، ص. 187.

2- **مختصر النهاية والتمام**، ص. 17.

3- **فيض العباب**، ص. 191-192.

4- المصدر نفسه، ص. 192-193.

5- للتفصيل أكثر في هذا الجانب، أنظر، محمد ياسر الهلالي: «المرأة والخيانة الزوجية»، (مقال مرقون)، ص: 8.

6- «**قال القاضي على الجماعة بفاس أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقري رحمه الله، توقفت في أمرها لما نزلت لأن مذهب المدونة حدها إذا أتت بعد خمسة سنين وشهر، وإن كان القابسي ضعف ذلك، ولأن من الرواة من يقول بأكثر من ذلك. وقد قال عليه السلام ادرؤوا الحدود بالشبهات، فأمرت بثقافها وشاورت فيها الفقهاء مصباح وابن عبد السلام وأبا الربيع الونشريسي وابن عبدون وإبراهيم بن موسى بن رقية فأفتوا بما في المدونة**». ويبدو أنهم أفتوا بحدها سيراً على مذهب المدونة، إلا أن القاضي أوقف الحد عنها، وألحق الولد بأبيه إلى أن يقدم الزوج، «**فينفيه إن شاء باللعان**»، راجع النازلة، الونشريسي، **المعيار**، الجزء 4، ص. 492-493.

خلاصة عامة:

هكذا يظهر أن المادة المصدرية المتعلقة ببعض جوانب التاريخ الاجتماعي والنفسي للجيش المغربي تكشف عن دلالات ومعاني أخرى، وتلقي بأضواء قد تسمح وتفيد في صياغة تفسيرات جديدة لبعض إخفاقات أو نجاحات هذا الجيش في مساره التاريخي، إذا ما سعينا إلى إعادة بنائها في تماسك موضوعاتها وتراتب قضاياها.

وإذا كنا في هذا البحث أغضضنا الطرف عن الأسباب الأخرى التي قد يكون لها دور ما في فشل هذه المشاريع العسكرية، خاصة ما يتعلق منها بالجانب الاقتصادي، أو بالاستراتيجية والسلاح وتكتيك القتال وغيرها، فقد بدا واضحا أن ثمة عناصر أخرى ينبغي استحضارها، إلى جانب تلك، كلما حاولنا طرق بعض إخفاقات الجيش وأسباب فشل مشاريعه أو نجاحها؛ عناصر تتعلق بالوضع الاجتماعي والنفسي للجندي المغربي وعلاقاته بوسطه العسكري والمدني، والتي لطالما غيبت وهمشت في معظم المقاربات التي تناولت تاريخ الجيش ونقاط ضعفه أو قوته.

بقي أن نتساءل: هل استفادت الدولة المغربية في المراحل اللاحقة لهذا العصر من هذه التذمرات والتمردات المستمرة للجند؟ وهل استحضرت أوضاعهم الاجتماعية في أفق تفادي إخفاقات مماثلة؟ ثم هل كان للجندي وأوضاعه مكان ما في مجمل تلك المشاريع التي رامت إصلاح هذه المؤسسة فيما بعد، خاصة في القرنين 19 و20م؟ تلك مشاريع بحوث أخرى نرجو أن تحظى باهتمام خاص من قبل الباحثين في هذا الاختصاص.